﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[١] ففشلوا ووهنوا في ذوات أنفسهم، ثم وألقى الرعب في قلوبهم، إذاً فمن هو الذي قتلهم إلّا الله، مهما ظهرت مظاهر المقاتل؟

ثم إثبات الرمي له ﷺ بعد سلبه لامحٌ إلى ميِّزة خاصة ودور متميِّز للرسول ﷺ قائداً للقوات المسلحة، حيث رمى ما رماه في قيادته الحربية بكل بسالة وشطارة، إضافة إلى الأهداف الواصلة هي إليها التي كانت هي الأخرى من النصرة الربانية في ذلك المَسْرح، مَصْرحاً لمدى الفاعلية والقابلية لقائد القوات المسلحة الرسولي.

فلأن القائد هنا له دوران اثنان فقد يصدق أنه ﴿رَمَىٰٓ﴾ حال أنه ما رمى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ولم يكن للمؤمنين إلّا دور واحد أنهم كانوا مقودين صالحين بتلك القيادة، فقد يصدق أنهم ما قتلوهم ولكن الله قتلهم.

وترى أن رسول الله ﷺ - فقط - رمى ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ ولم يقتل؟ المهم لدوره كقائد القوات هو الرمي، لأنه يعني - بما عنت - رمي الحصباء إلى وجوه الكفار قائلاً: شاهت الوجود، فارتموا وارتبكوا حتى لم يكونوا ليروا واقع عديد المؤمنين القلة، ولم يروا إلّا قلتهم أنفسهم فهزيمتَهم، فلذلك فقدوا عزيمتهم وتناسوا عظيمتهم، وكل ذلك من الله، فإن مجرد رمي التراب لا يخلف تلك الهزيمة العظيمة، ومهما كانت صورة الرمية منك فسيرتها ومصيرتها هما من الله.

فكما في المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾[٢] إذ يسلب عنه واقع الإحياء إلى ظاهرة من فعله المأذون، حيث أذن الله في حياة الموتى قرناً لفعله عليه السلام غير الفاعل تلك الفعلة الربانية، كذلك أنت يا قائد القوات

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ رمية الغلبة هذه الخارقة للعادة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إياها، إيصالاً لكف من التراب إلى ألفي عين، وإيغالاً لأصحابها فيما أوغل، وكأن ذلك التراب غازات كيماوية تعمي العيون ثم وترعب القلوب.

ذلك، إلى سائر رميات الرسول ﷺ التكتيكية في بدر الكبرى، فقد انحصرت رمياته في مظاهر ثلاثة: رمية القتل، ورمية الحصى، وسائر الرمية الحربية بتكتيكاتها، ولكن الفاعلية الواقعية في هذه الرميات لم تكن إلّا من الله ما لولاه لم يحصل ما حصل لصالح المؤمنين.

ذلك، والرمية الأصلية هي رمية التراب حيث قال ﷺ: أمام معسكر العدو: اللّهم إنك أمرتني بالقتال، ووعدتني النصر ولا خلف لوعدك، وأخذ قبضة من حصى فرمى بها في وجوههم فانهزموا بإذن الله فذلك قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(١)] - «فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء»[(٢)]، «وما قتلتموهم» فلأنهم استغلوا عميان العيون بهذه الرمية فاغتالوهم[(٣)].

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٤ - أخرج ابن عساكر عن مكحول قال: لما كرّ عليّ وحمزة على شيبة بن ربيعة غضب المشركون وقالوا اثنان بواحد فاشتعل القتال فقال رسول الله ﷺ: وفيه عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال: شاهت الوجوه فانهزموا فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ...﴾ [الأنفال: ١٧].

(٢) المصدر أخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: ناولني قبضة من حصباء فناوله فرمى بها في وجوه القوم فنزلت هذه الآية، وأخرجه مثله الحمويني بسنده المتصل عن ابن عباس عنه ﷺ (ملحقات إحقاق الحق ٣: ٥٤٥).

(٣) المصدر أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنى القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ...﴾ [الأنفال: ١٧].

ذلك، فحقاً ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ حيث العَدَد والعُدد للمشركين كانا أضعاف ما للمسلمين، فالعدد ثلاثة أضعاف، والخيل مائتا ضعف، والسيوف خمسمائة ضعف، والحالة السابقة للمشركين غَلَبُهُم عليهم حيث أخرجوهم قبل أشهر من العاصمة، ولم يكن من المسلمين إلّا رمية الحصباء من النبي ﷺ بدعاء النصر، فشملهم المؤمنون قتلاً وحصراً وأسراً فبطلت مكيدتهم، وسكنت أجراسهم، وخمدت أنفاسهم، فهم بين قتيل وجريح وأسير وحصير وفرير!: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في بدر، فلماذا - إذاً - تولي الأدبار![1].

ذلك، جبراً لكسرهم في هجرتهم الهاجرة، وإعلاءً لكلمة الحق إحقاقاً لها وإخفاقاً للباطل ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ تأكيداً لهم أن سيروا وعين الله يرعاكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ مقالهم ومقال أعدائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم وحال أعدائهم وما هو الصالح في ذلك المسرح الوطيد.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الله ربكم إن تنصروه ينصركم، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الغلب الخارق لمألوف الحروب هو من بلائه الحسن ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما أوهنه بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الرمية والقتلة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۘ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾:

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٥: ١٣٦ قال مجاهد: اختلفوا في بدر فقال هذا: أنا قتلت وقال الآخر: أنا قتلت فأنزل الله هذه الآية، وروي أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ: هذه قريش قد جاء بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك: اللّهم إني أسألك ما وعدتني، فنزل جبرئيل وقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلي عليه السلام: أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم وقال: شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا.

وهل المخاطَبون هنا هم المشركون حيث استفتح أبو جهلهم بقوله: «اللَّهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم»؟ فقد جاءكم الفتح، حيث فتح عليكم للمؤمنين لأنهم أحب إليه وأرضى عنده.

جاءكم الفتح المرضي عند الله لصالح الأحب إلى الله والأرضى، فجعل الدائرة عليكم تحقيقاً لاستفتاحكم، فعليكم - إذاً - أن تنتهوا عن غيكم وجهلكم إلى رشدكم إيماناً بهذه الرسالة السامية، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وما أنتم عليه شرٌّ لكم.

﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى غيكم ومحاربة المؤمنين ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرهم وهزيمتكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عِدَّة وعُدَّة ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما لم تغن عنكم يوم بدر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ على أية حال ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما داموا معه، فالمعركة - إذاً - بين الفريقين غير مكافئة حيث المؤمنون - ومعهم الله - هم منتصرون دائماً، والكافرون منهزمون كذلك، معركة مقررة المصير، إلا عند تخلف المؤمنين عن المسير، إذاً فمصيرهم مصير من سواهم بسجال الحرب.

ذلك، وإلى واجهة أخرى علَّها معنية مع الأولى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أنتم المؤمنين فتح الفتوح، رجوعاً إلى العاصمة الرسالية، وكما كانوا يستفتحون منذ الهجرة: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هنا في بدر، كبادرة للفتح المبين وأنتم أذلة وقلة فـ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2] وسوف يأتيكم

(١) سورة الصف، الآية: ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

- بأحرى - بعد ردح إذا كنتم كما أنتم وبأحرى وأقوى، فقد تشمل ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الفتح المستقبل إلى الماضي قضية تحقق وقوعه بما وعد الله.

ثم تحول الخطاب إلى الفرق الآخر ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أم وقد يشمل المؤمنين ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أو ﴿تَنتَهُواْ﴾ عن استعجال الفتح المبين حيث يأتي الله لكم حتى حين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لهذه الحالة والهالة الإيمانية التي اقتضت غلبكم عليهم ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصركم، ولكن اعلموا أنه: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لا واقع الإيمان، كما لم تغن يوم أُحد حيث تركتم المواقع المقررة لكم طمعاً في الغنيمة، وعلى أية حال ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قدر إيمانهم.

وما أجمله جمعاً بين الخطابين بمثنى الاستفتاحين المتعاكسين، ثم ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أنتم المشركون عما أنتم عليه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ توبة إلى الله أم تركا لمحاربة المؤمنين بالله، ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى تلك المحاربة ﴿نَعُدْ﴾ إلى ذلك الاستفتاح، واعلم أن ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ عِدَّة وعُدَّة عن الله ﴿شَيْـًٔا﴾ ما دام الله مع المؤمنين ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ كما كثرت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أم ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أنتم المؤمنون عن القتال استفزازاً للكفار، أم عن الاستفتاح العاجل، أم عما لا يليق بالمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى صالح الإيمان ﴿نَعُدْ﴾ إلى الفتح لصالح الأمان، واعلموا أنه ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إن كانت لكم فئة ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ لو لم يكن الله ناصركم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فقد حملت الآية نذارة للكافرين وبشارة للمؤمنين دونما اختصاص في خطابها فريقاً دون آخرين، قضيةَ أدب اللفظ وحَدَب المعنى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمركم وينهاكم ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يحمل إليكم من طاعة الله ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: عن الله أصالة وعن رسوله رسالة، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلَة عن طاعة

الله، ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أنباء ما قد سلف من المتولين عن الله ورسوله، والمطيعين الله ورسوله، و﴿تَسْمَعُونَ﴾ أوامر الله تترى في كتابه وعلى لسان رسوله.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ كالمنافقين ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ عقيدياً وعملياً، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق، وكالكفار المستهزئين بما يسمعون: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾[1] فهم ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[2] كافرين أو منافقين ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3] أم ومؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما في عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعني ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ جمعاً من المكيين الذين آمنوا أوّل مرة ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر التحاقاً إلى الرسول ﷺ أم نَظِرة الالتحاق بالفرقة الغالبة، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[4] وأما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول ﷺ فهم خُلَّص ذو خلَّطٍ مهما كانوا درجات.

وحين تكون طاعة الرسول كطاعة الله مفروضة طليقة والتولي عنه كالتولي عن الله مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه ﷺ وبين كتابة وصيته ﷺ في مرض وفاته»[5]؟ والوصية حق لكل مسلم فضلاً

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٥) مفتاح كنوز السنة نقلاً عن بخ - ك ٣ ب ٣٩ قاك ٥٨ ب ٦، ك ٦٤ ب ٨٣ ك ٧٥ ب ١٧ ك ٩٦ ب ٢٦ مس - ك ٢٥ ب ٢٢ قد - ج ٢ ق ٢ ص ٣٦ و٣٢٤ و٣٣٦ قا حم - أوّل ص ٢٣٢ و٢٩٣ و٣٢٤ و٣٣٦ قا ٣٥٥ ثالث ص ٣٤٦.

عن النبي الذي يعني في وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه الله! و«لقد لُدَّ في مرضه وهو غير راض»[١].

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

إن الشرَّ المعني هنا ليس إلّا في حقل التكليف الإنساني ومن أشبه، فالتعبير هنا بـ: ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ دون «الناس» أو «الجنة والناس» تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم في الحق دوابَّ بل هم أضل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٢].

فـ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ هنا طليعة تشمل خيرها وشرها، من حيوانها وإنسانها وغيرهما، والشر الطليق بينها ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شراً بين خير من الدواب أو شر بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان ولكنها ليست لتسمع سمع الإنسان، وهي مهتدية بفطرتها كما فطر الله ولكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان وألسنة وهم بسوء صنيعهم لا يسمعون إنسانياً ولا ينطقون، فقد قطعوا عن أنفسهم النفسية الإنسانية النفيسة إلى نفسية نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراك ظاهراً على آذانهم، وإذاعتها على ألسنتهم، وباطناً على قلوبهم، وأهم الواردات المعرفية هي الواردة من الأسماع: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٣].

وشر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان والقلب قلب

(١) المصدر - ك ٧٦ ب ٢١ مس - ك ٣٩ ح ٨٥ و٨٦ عد - ج ٢ ق ٢ ص ٣١ حم - أول ص ٢٠٩ سادس ص ٥٣ و١١٨ و٤٣٨ هش - ص ١٠٠٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٠.

حيوان وذلك ميِّت الأحياء» (٨٥ / ١٥٥) - أولئك «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية» (١٠٦ و٤٠) - «منهوما باللذة، سَلِس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيءٍ شبهاً بالأنعام السائمة» (١٤٧ ح/ ٥٩٥).

إن الله تعالى لم يخلق دابة شريرة في أصلها، فلم يخلق الشيطان شيطاناً وإنما جناً كسائر الجان، ثم هو الذي شيطن نفسه بسوء صنيعه، كما لم يخلق الكافر كافراً، وكذلك سائر الدواب الشريرة، اللّهم إلّا شراً قاصراً هو قضية كون الكائن مخلوقاً إذ لا يمكن أن يُخلق ما هو خير مطلق كما الله.

ذلك، فالدواب الشريرة في حقل ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ هي المقصرة في شرها فأين تقصير سائر الدواب وتقصير الصم البكم، فقضية خلق الإنسان في أحسن تقويم والشرعة التي تقومه أكثر صاعداً في المعارج، ألا يعمل شراً أم يعمل أقل من سائر الدواب، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره ارتداداً إلى أسفل سافلين فهو ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ بصورة طليقة وكما يقول الله عنه ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل.

والتعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة وأضل سبيلاً، فلا يحق لهم اسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

هنا «لو» تحيل أن يعلم الله فيهم خيراً إذ لا خير فيهم حتى يُعلم، فهنا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

مساواة بين علم الله شيئاً وواقعه، وبين عدمه وعدم واقعه لأنه بكل شيء محيط.

فحين لا سمع لهم وهم صمٌّ بسوء فعالهم واختيارهم، فلا يحق إسماعهم الحق الذي هم عنه معرضون، إذاً - والحال هذه - «ولو أسمعهم - أسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم - لتولوا» عما أسمعوا ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عن الحق المُرام. فـ«إذا أراد الله بقوم خيراً أسمعهم ولو أسمع من لم يَسمع لولَّى كأن لم يسمع»[1].

فليس ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ وارداً مورد سمع القبول، وإلّا لاستحال التولي والإعراض، إنما هو مورد سمع التمُّنع لهؤلاء الدواب الصُّم البكم الذين لا يعقلون.

وقد قيل إنهم سألوا الرسول ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتاً وعناداً، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقاً لهذه الرسالة ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿. . . ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ وكيف «لما» دون «إلى ما»؟ علَّه كما الصراط المستقيم حيث يُهداه أو يهدى له أو يهدي إليه، مثلث متدرجة الزوايا في حقل الهدى.

(١) نور الثقلين ٢: ١٤١ في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد الله ثم أمسك هنيئة ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا والله المستعان.